الرسالة

(رومية ١٠: ١–١٠)

يا إخوةُ إنَّ بغيةَ قلبي وابتهالي إلى الله هما لأجلِ إسرائيل لخلاصهِ* فإنّي أشهدُ لهم انَّ فيهم غَيرةً للهِ إلاَّ أنَّها ليست عن معرفةٍ* لأنَّهم إذ كانوا يجهلونَ برَّ الله ويطلبونَ أن يُقيموا برَّ أنفُسِهم لم يخضَعوا لبِرّ الله* إنَّما غايةُ الناموسِ هي المسيحُ للبِرِّ لكلِّ مَن يؤمن* فإنَّ موسى يَصِفُ البِرَّ الذي من الناموسِ بأنَّ الإنسانَ الذي يعمَل هذه الأشياءَ سيحيا فيها* أمَّا البِرُّ الذي من الإيمانِ فهكذا يقولُ فيه لا تَقُلْ في قلبِكَ مَن يصعَدُ إلى السماءِ. أي ليُنزِلَ المسيح. أو مَنْ يهبطُ إلى الهاوية. أي ليُصعِدَ المسيح من بينِ الأموات* لكن ماذا يقول. إنَّ الكلمةُ قريبةٌ منك في فمِكَ وفي قلبِك أي كلمةَ الإيمانِ التي نبشِّرُ نحن بها* لأنَّك إنِ اعترفتَ بفمِك بالربِّ يسوعَ وآمنتَ بقلبِك أنَّ اللهَ قد

القلب

حاول الإنسان منذ القديم أن يحدّد ما يجري في داخله من أفكار ومشاعر، وعندما بحث في داخله لم يجد إلاّ أعضاء الجسد، ولكنّه لاحظ أنّ الإنسان لا يمكنه الحياة من دون القلب. فإذا توقف توقفت معه الحياة. من هنا اعتبر أنّ القلب هو «باطن» الإنسان بمدلولات واسعة، ومركز الذات. وفي حين أنّ المفكّرين والباحثين ربطوا العواطف بالقلب، أي أنّ مصدرها هو القلب، وربطوا الفكر بالعقل، إلاّ أنّ الكتاب المقدّس ربط كلّ شيء بالقلب: الفهم، والفكر، والمشاعر، والأفعال وغيرها: «ولكن لم يعطكم الربّ قلبًا لتفهموا» (تث٢٩: ٤)؛ «فإنّ حنّة كانت تتكلّم في قلبها» (١صم١: ١٣)؛ «لأنّك منعتَ قلبَهم عن الفطنة» (أيو١٧: ٤)؛ «لك قال قلبي قلتَ اطلبوا وجهي، وجهك يا ربّ أطلب» (مز٢٧: ٨).

والأهمّ من ذلك أنّ القلب في الكتاب المقدس هو مركز اللقاء مع الله، فالله يسكب محبّته في قلوبنا بروحه القدّوس، ويفحصها إن كانت تسير بحسب وصاياه، وهو يريد

العدد ٢٨ / ٢٠١٧

الأحد ٩ تموز

تذكار الشهيد في الكهنة بنكراتيوس أسقف طفرومينة

اللحن الرابع

إنجيل السَحَر الخامس

قلوبنا: «لأنّ محبّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رو٥: ٥)؛ «يا ابني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طرقي» (أم٢٣: ٢٦)؛ «أنا الربّ فاحص القلوب ومختبر الكلى لأُعطي كلَّ واحدٍ حسب طرقه حسب ثمر أعماله» (ارميا١٧: ١٠).

يتصرّف الإنسان بحسب ميل قلبه، فإذا كان قلبه طاهرًا كانت أفعاله صالحة، وإذا كان قلبه مظلمًا جاءت أفعاله شرّيرة: «يا أولاد الأفاعي، كيف تقدرون أن تتكلّموا بالصالحات وأنتم أشرار؟ فإنّه من فضلة القلب يتكلّم الفم. الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يُخرج الصالحات، والإنسان الشرير من الكنز الشرير يُخرج الشرور» (مت١٢: ٣٤–٣٥). كما يحاول الإنسان أحيانًا أن يخفي ما في قلبه ويظهر وجهًا آخر تجاه الله، ولكنّ الله يعرف مكنونات القلوب: «فقال السيّد لأنّ هذا الشعب قد اقترب إليّ بفمه وأكرمني بشفتيه وأمّا قلبه فأبعده عني وصارت مخافتهم منّي وصيّة الناس معلَّمة، لذلك هانذا أعود وأصنع بهذا الشعب عجبًا وعجيبًا فتبيد حكمة حكمائه ويختفي فهم

فهمائه. ويلٌ للذين يتعمّقون ليكتموا رأيهم عن الربّ فتصير أعمالهم في الظلمة ويقولون من يبصرنا ومن يعرفنا» (أشعيا٢٩: ١٣–١٥). إذا كان الله يطلب قلوبنا فإنّه يريدها طاهرة نقيّة، ومن قلبه نقيّ عاين الله: «طوبى للأنقياء القلب لأنّهم يعاينون الله» (مت٥: ٨).

عندما يطلب الله منّا قلوبنا فإنّه يطلبها كلَّها، وليس جزءًا منها. هذا لأنّه يريد أنّ يكون الإنسان كلّه له: «طوبى للكاملين طريقًا السالكين في شريعة الربّ. طوبى لحافظي شهاداته، من كلّ قلوبهم يطلبونها» (مز١١٩: ١–٢). وهو يريدنا أنّ نحبّه من كلّ قلوبنا، وعندئذ تكون محبّتنا للآخرين من منطلق محبّتنا الكاملة لله، وهكذا تنتفي كلّ أنانيّة: «تحبّ الربّ إلهَك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ فكرك، هذه هي الوصيّة الأولى والعظمى. والثانية مثلها، تحبّ قريبك كنفسك. بهاتين الوصيّتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء» (مت٢٢: ٣٧–٤٠).

في هذا الإطار يمكننا أن نفهم قول الرسول بولس في مقطع الرسالة إلى أهل رومية، الذي يُقرأ اليوم على مسامعنا (رو١٠: ١–١٠)، عن موضوع الإيمان بالقلب: ’لأنّك إن اعترفتَ بفمك بالربّ يسوع وآمنت بقلبك أنّ الله قد أقامه من بين الأموات فإنّك تخلص» (١٠: ٩). هناك أناسٌ يجتزئون قول الرسول ويفصلونه عن إطاره الكتابيّ ويعلّمون أنّه يكفي أن تؤمن في قلبك وتُعلن هذا الإيمان بفمك بالاعتراف بالربّ يسوع لكي تخلص، ويعتبرون أنّ هذا الخلاص يحصل مرّة واحدة لحظة هذا الإيمان وهذا الاعتراف. غير أنّ ما يعلّمنا إيّاه الكتاب المقدّس عن علاقة الإنسان بالله، في القلب، يخالف تمامًا هذه التعليم. فعندما يستخدم الرسول بولس كلمة «القلب» مقترنةً «بالإيمان»، يفترض أنّ سامعيه يعرفون الكتاب المقدّس، وتاليًا يدركون أنّه عندما يؤمنون بالقلب فهذا يعني تسليم كلّيّ لله. فالإيمان بالله هو الثقة المطلقة به.

كما أنّ هذا الإيمان الكلّيّ يستتبع حياةً وفق وصايا الله، والتي يختصرها الربّ يسوع بوصيّة المحبّة، المحبّة لله ومحبة القريب. فالإيمان في الكتاب المقدّس هو المنطلق وليس النهاية، وعندما نعترف بالفم بالربّ يسوع ونؤمن بالقلب بأنّ الله أقامه من بين الأموات، يضعنا الله على سكّة الخلاص. وهذا تمامًا ما يعلّمنا إيّاه الكتاب المقدّس، كيف أنّ الشعب بعدما أنقذه الله من العبوديّة في مصر وأخرجه منها وضعه على طريق الدخول إلى أرض الميعاد، والتي لم يدخلها إلّا من سار في طريق وصايا الله، والذي يمثّله يشوع بن نون. وإذا أمعنّا في قراءة الكتاب المقدّس نجد أنّ دخول الشعب إلى أرض الميعاد لم يكن النهاية بل البداية، والبقاء في أرض الميعاد مشروط بالسلوك بوصايا الله. وهذا يستمرّ مدى حياة الإنسان، فهو مدعوّ للالتصاق بالله حتّى ينال بركته، وإلّا جلب على نفسه الويلات (يشوع٢٤).

من هنا يشدّد الرسول أيضًا في المقطع نفسه على مشكلة الإنسان في أنّه في غالب الأحيان يضيّع الطريق ويطلب ما لنفسه وليس ما لله: «لأنّهم إذ كانوا يجهلون برّ الله ويطلبون أن يثبتوا برّ أنفسهم لم يُخضعوا لبرّ الله، لأنّ غاية الناموس هي المسيح للبرّ لكلّ من أقامَهُ من بين الأمواتِ فإنَّك تخلُصُ* لأنَّهُ بالقلبِ يؤمَنُ للبرِّ وبالفمِ يُعترفُ للخلاصِ.

الإنجيل

(متى ٨: ٢٨–٣٤)

في ذلك الزمان لمَّا أتى يسوعُ إلى كورَةِ الجُرْجُسِيِّينَ استقْبَلَهُ مجنونانِ خارجانِ مِنَ القبورِ شرسانِ جدًّا حتى إنَّهُ لم يكنْ أحدٌ يقدِرُ أن يجتازَ من تلكَ الطريقِ* فصاحا قائلَيْنِ ما لنا ولك يا يسوعُ ابنَ اللهِ. أجِئْتَ إلى ههنا قبل الزمانِ لِتُعَذِّبَنا* وكان بعيداً منهم قطيعُ خنازيرَ كثيرةٍ ترعى* فأخذ الشياطينُ يطلبون إليهِ قائلينَ إنْ كنتَ تُخرجنا فائْذَنْ لنا أن نذهَبَ إلى قطيعِ الخنازيرِ* فقال لهم اذهبوا. فخرجوا وذهبوا إلى قطيعِ الخنازيرِ. فإذا بالقطيعِ كلِّهِ قد وثَبَ عَنِ الجُرْفِ إلى البحرِ ومات في المياهِ* أمَّا الرُّعاةُ فهربوا ومَضَوا إلى

المدينةِ واخبروا بكلّ شيءٍ وبأمرِ المجنونينِ* فخرَجتِ المدينةُ كلُّها للقاءِ يسوعَ. ولمَّا رأوهُ طلبوا إليهِ أن يتحوَّلَ عن تخومهم* فدخل السفينةَ واجتازَ وأتى إلى مدينتهِ.

تأمل

إن قضية وجود الشيطان تدخل في نطاق بحثنا. إذا كان الشر لا يأتي من الله، فمن أين جاء الشيطان؟ ماذا نقول عنه؟ يمكننا أن نقول عن الشيطان ما نقوله عن الشر البشري. كيف صار الإنسان شريراً؟ صار الإنسان شريراً بإرادته. للشيطان حياة حرة، وكان بإمكانه أن يكون مع الله، وله الحرية أن يكون بعيداً عن الخير. كان جبرائيل ملاكاً، وكان دائماً إلى جانب الله. وكان الشيطان ملاكاً أيضاً، الا أنه سقط كلياً من رتبته. ذاك حفظته إرادته عالياً، وهذا أسقطته إرادته المطلقة في الهاوية. كان بإمكان جبرائيل أن يسقط، والشيطان أن يبقى مع الله، إلا أن محبة ذاك أبقته إلى جانب الله، واغتراب هذا عن الله جعله منبوذاً. الشر هو الغربة عن الله. التفاتة من العين تجعلنا إمّا في النور، وإمّا في يؤمن» (١٠: ٣-٤). ويعتقد أنّ الله يخلّصه لأنّه يستحقّ الخلاص، غير أنّ الله لم يحبّنا لأنّنا صالحون وهو لا يخلّصنا لهذا السبب، بل لمجرّد محبّته للبشر: «ولكنّ الله بيّن محبّته لنا، لأنّه ونحن بعدُ خطأة مات المسيح لأجلنا» (رو٥: ٨). وفي سفر تثنية الاشتراع تعليم قاسٍ، إذ إنّ ما فعله الله مع الشعب عندما أدخلهم أرض الميعاد كان بسبب إثم الشعوب الأخرى وليس بسبب برّ الشعب: «لا تقل حين ينفيهم الربّ إلهك من أمامك قائلًا: لأجل برّي أدخلني الربّ لأمتلك هذه الأرض، ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الربّ من أمامك. ليس لأجل برّك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الربّ إلهك من أمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الربّ عليه لآبائك إبرهيم وإسحق ويعقوب. فاعلم إنّه ليس لأجل برّك يعطيك الربّ إلهك هذه الأرض الجيّدة لتمتلكها، لأنّك شعب صلب الرقبة» (تثنية٩: ٤-٦).

«الحرب اللامنظورة»

تعيِّد كنيستنا المقدّسة في ١٤ تموز لأبينا البار نيقوديموس الآثوسي الذي ذاعت شهرته في العالم كله، فنُقلت سيرته وتعاليمه إلى العديد من اللغات. وقد أعلنت البطريركية المسكونية سنة ١٩٥٥ قداسته بُعيْد قرن ونيّف على رقاده.

للقديس العديد من الكتابات جعلت منه كنزاً رائعاً وتراثاً فريداً وتحفةً أرثوذكسيّة آثوسيّة لا تُنسى.

من بين أغنى نتاجه نذكر كتاب «الحرب اللامنظورة»، وفيه يتحدَّث القديس نيقوديموس عن الحروبات الروحيَّة التي تعترض مسيرة الإنسان الخلاصيَّة منذ تقبُّله لسر المعموديَّة حتى لحظة مماته، كما عن حروب الشياطين الشريرة، الحاقدة على الإنسان والتي تحاربه دائماً: «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحيّة في السماويات» (أف٦: ١٢). المسيحي هو جندي في هذه الحرب الروحيَّة، يقول قديسنا، وربانّه هو يسوع المسيح الذي تحيط به الملائكة والقديسون.

يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل أفسس: «من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل ... لابسين درع البر، وحاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام، حاملين فوق الكل ترس الإيمان، الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة. وخذوا خوذة الخلاص، وسيف الروح الذي هو كلمة الله» (أف٦: ١٣ – ١٧). فما هو سلاح المحارب في هذه الحرب الروحيَّة؟

يجيب القديس نيقوديموس قائلاً: «خوذته هي عدم الثقة بالنفس، وعدم الإعتماد عليها بل الإيمان بالرب والاتكال عليه في خوضنا هذه الحرب. فالإعتماد كلّه على الله، والإيمان به والثقة به. ما هي أدوات هذا السلاح؟ إنَّها النمو في آلام يسوع المسيح. ما هي منطقته؟ إنها بتر الأهواء الشهوانيَّة. ما هو نعله؟ هو التواضع وتذكّر الضعف، وذلك خشية الوقوع في الكبرياء. ما مهماز (عصاً في رأسها حديدة يُنخس بها الحمار) أرجل المجاهد؟ إنَّها الصبر على التجارب واللامبالاة بإزاء الإهانات وكل الإضطهادات. ما هو سيفه؟ إنَّه الصلاة الطاهرة التي ترفع إلى الله أبداً. ما هو رمحه؟ إنه عدم الرضوخ للشر، أو الدخول في هدنة مع الشيطان، ورفض جميع عروضه وإيحاءاته. ما هو غذاؤه؟ إنَّه جسد السيد ودمه».

إن حياتنا الأرضيَّة هي رحلة جهاد مستمرة لا تتوقَّف إلا عند الممات. يشبّه القديس نيقوديموس المجاهدين «بالرياضيين في ميدان السباق الذين يمتنعون عن كل ما يحول دون تقدّمهم لكي يتوَّجوا بإكليل الغار رمز الغلبة». لذلك، فإنَّ الذين يجاهدون الجهاد الحسن لا بدّ لهم أن يغلبوا «سلطان هذا العالم» مستمدين غلبتهم من الرب يسوع المسيح القائم من بين الأموات الذي غلب الموت عندما سمَّر خطايانا على الصليب. يقول الإنجيلي يوحنا في الرؤيا أن من يغلب «يلبس ثياباً بيضاء ولن أمحو اسمه من سِفْر الحياة، وسأعترف باسمه أمام ملائكته» (رؤ٣: ٥) و «يملك كل شيء وأكون له إلهاً ويكون لي ابناً» (رؤ٣: ٢١).

لذا إذا أراد المسيحيّ أن ينتصر في حربه وينال الإكليل، عليه أن :

+«لا يثق بنفسه في كل شيء»:

الثقة بالنفس لا تتيح للنعمة أن تسكن فينا. فهي تجعلنا ننظر إلى أنفسنا نظرة فوقيَّة كأنَّنا شيء، وبالحقيقة، وبسبب ضعفنا البشري، إننا «لا شيء» من دون الرب يسوع الذي يقوينا.

+ «ليكن في قلبه ثقة كبيرة بالله»:

يستخدم الشيطان اليأس سلاحاً يحاربنابه كي نتخلى عن حلبة الجهاد. لذا على المحارب أن يتكل على الله وحده دون سواه، وليس على قدراته البشريَّة، فالغلبة هي من الله وحده: «الرب عِزّي ومعونتي، عليه اتكل قلبي فانتصرت...» (مز٢٨: ٧).

+«يجاهد دون توقّف»:

قلنا سابقاً أن هذه الحرب ليست قصيرة المدى لهذا، يدرِّب المؤمن نفسه على الانتباه واليقظة أمام خصومه ولا يستسلم أمام أول سقطة. يسمح الرب بأن نسقط في الخطيئة كي يجعل الإنسان أكثر وعياً لحقيقة ضعفه فيتسلَّح أكثر بالفضيلة، شرط أن يعترف بارتكابه الخطيئة وينهض من سقطته. «لكي لا نكون متّكلين على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات. الذي نجّانا من موت مثل هذا، وهو ينجّي. والذي لنا رجاءٌ فيه أنَّه سينجي أيضا فيما بعد» (٢كو١: ٩-١٠).

+ «يصلي بدون انقطاع»:

تعتبر الصلاة، السلاح الرابع، الأكثر أهميَّة من أي شيء آخر لأنها تقوّي الأسلحة الثلاثة التي ذكرناها أعلاه. يذكر القديس نيقوديموس أنَّنا بالصلاة «نضع فأس القتال في يد الرب فيحارب أعداءنا ويهزمهم». لذلك يجب أن تكون الصلاة من القلب وتبقى فيه. الصلاة مع الجهاد لا ينساها الرب بل يسكب من خلالها نعمه الوفيرة فينا. الصبر والشكر دائماً هما مفتاحا الصلاة الحقيقيَّة سواء أعطانا الله ما نطلبه أم حجبه عنَّا. فكلا الأمران يقول القديس يوحنا الذهبي الفم «هو عطية في ذاتها».

أَهَّلنا الرب الإله أن نجوز هذا العمر، منقذاً إيانا من كل اضطراب يصير لنا من الشياطين، بشفاعات أبينا البار نيقوديموس وجميع القديسين، آمين.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

ظلال أجسادنا. في مثل هذه الحالة تكون الاستنارة من نصيب الذين يلتفتون إلى النور، وأمّا الظلمة فهي بالضرورة من نصيب الملتفتين إلى ظلال أجسادهم. الشيطان ليس طبيعة مضادة للخير، بل طبيعة خيرة في الأساس تشوهت بإرادتها واختيارها.

وما دام قد أصبح آنية لكل شر، فقد قبل مرض الحسد، فحَسَدَنا على الكرامة. لم يكن ليتحمل الكرامة التي كانت لنا في الفردوس إذ كنا نحيا بدون ألم. لقد خدع الإنسان بريائه وخبثه، فجعل من شوق الإنسان إلى مساواته بالله تعالى سبيلًا لخداعه، فقاده إلى الشجرة، ووسوس له بأنه سيصير إلهاً إذا أكل من ثمرها. «إذا أكلتما منها تصبحان مثل الآلهة تعرفان الخير والشر» (تك ٣: ٥). لم يخلق الشيطان ليكون عدواً لنا، بل إنما صار عدواً لنا حسداً. رأى أنه سقط من رتبة الملائكة، فلم يتحمّل أن يرى المخلوق الترابي يرتفع بالجد والجهاد إلى رتبة الملائكة.

القديس سمعان اللاهوتي